أعدائه فأجابوه لذلك جميعاً مسلمهم وكافرهم ولم يشذ من القوم سوى أبي لهب عم النبي فإنه انضم إلى قريش(١) .

المشركون والحصار الاقتصادي ضد النبي ومن لجأ إليه :

أمام تلك الأحداث من إسلام الأقوياء في قريش ودعوة بني هاشم وبني المطلب على لسان أبي طالب لحماية النبي اجتمع المشركون في وادي المحصب في مكان لبني كنانة وتحالفوا على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يخالطوهم في شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ؛ وكتبوا من أجل ذلك صحيفتهم الظالمة ضمنوها عهودهم ومواثيقهم ألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً قط ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يتحقق ما تحالفوا من أجله .

ويقول ابن القيم إن الذي كتب تلك الصحيفة تعددت الآراء حول من كتب الصحيفة فقيل إنه نضر بن الحارث وقيل إنه منصور بن عكرمة ورجح أن الذي كتبها بغيض بن عامر بن هاشم ، وقد دعا عليه النبي ﷺ فشلت يده(٢) .

وقد علقوا تلك الصحيفة الظالمة في جوف الكعبة إمعاناً في احترامها وتنفيذها لدى قريش وقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب المؤمن منهم والكافر على السواء إلى رسول الله ﷺ ماعدا أبا لهب وكانوا بشعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة واشتد الحصار وتزايد به الأذى والجوع على النبي ومن معه مما اضطرهم إلى أكل الأوراق وجلود الميتة يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال واستمر الحال بهم ثلاثة أعوام

---

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٦ .
(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ٤٦

كاملة وفى المحرم سنة عشر من البعثة اجتمع بعض الشباب من قريش لما شاهدوه من ظلم فادح ووحشية لاتوصف وكان على رأس هؤلاء الشباب هشام بن عمرو بن عامر بن لؤى وكان يصل بنى هاشم فى الشعب ليلا يقدم لهم ما تمكن من الطعام — وقد ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومى وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب — وقال : يازهير أترضى أن تأكل الطعام وتشرب الشراب ، وأخوالك على ماتعلم من حالهم ؟ فقال له زهير وماذا أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معى رجل واحد لقمت بنقضها فقال له هشام قد وجدت رجلا قال له فمن هو قال : أنا . قال له زهير أبغنا رجلا ثالثاً . فذهب إلى مطعم بن عدى فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ولامه على ترك قريش تصنع ماتصنع من ظلم ووحشية فقال له المطعم ويحك : ماذا أصنع إنما أنا رجل واحد قال له وقد وجدت ثانياً قال من هو ؟ قال أنا ، قال أبغنا ثالثاً قال قد فعلت قال من هو قال زهير بن أبى أمية قال أبغنا رابعاً فذهب إلى أبى البحترى بن هشام ، فقال له : مثل ماقال للمطعم بن عدى ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا قال نعم . قال : من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال: أبغنا خامساً . فذهب إلى زمعه بن الأسود بن أسد فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد قالى نعم وذكر له وهم : ١ — هشام بن عمرو ٢ — زهير بن أبى أمية ٣ — المطعم بن عدى ٤ — أبو البحترى بن هشام ٥ — زمعه بن الأسود بن أسد . ثم اجتمعوا جميعاً عند الحجون وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة وقال زهير أنا أبدأ فأكون أول من يتكلم . فلما جاء الصباح توجهوا إلى نادى القوم وظهر زهير فى حلة عظيمة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فصاح فيهم ياقوم أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى ، والله لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة الظالمة .

فصاح أبو جهل فى وجهه وكان فى ناحية المسجد قائلا له كذبت والله

لا تشق أبداً فرد زمعة بن الأسود على أبي جهل بقوله : أنت والله أكذب مارضينا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . فرد أبو جهل وقال : هذا أمر قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان . وأبو طالب جالس في ناحية المسجد . وقد جاء إلى المشركين من القوم لأن الله قد أطلع رسوله من قبل ثورة الشباب هؤلاء على أمر الصحيفة وأنه تعالى أرسل إليها الأرضة فأكلتها ولم يترك منها سوى القدر الذي فيه سمي الله تعالى وذكر ، فأخذ بذلك النبي عمه أبي طالب فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه محمداً قال له : كذا وكذا ، ثم قال لهم وأقول لكم تعقيباً إن كان ما أخبرني به ابن أخي كذباً خلينا بينكم وبينه وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا قالوا : قد أنصفت . ثم عقب ذلك الحوار قام المطعم إلى الصحيفة ليمزقها ويشقها فوجد ما أخبر به أبو طالب على لسان رسول الله ﷺ حقاً ولم يكن موجوداً بالصحيفة إلا (باسمك اللهم) ثم نقضت الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن كان معه من الشعب غير أن المشركين من المشركون لم يتأثروا بما حدث ولم يأخذوا عظات أو عبر ولم يرجعوا عن غيهم وعنادهم ضد الرسول ودعوته ولكنهم قالوا إن هو إلا سحر مستمر وصدق الله العظيم فيما قال : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر »(١) .

---

(١) راجع في ذلك صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ بمكة ج ١ ص ٢١٦ ، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ج ١ ص ٥٤٨ ، ج ٢ ص ٤٦ دار المعارف ، وابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٧٧ ، وراجع في ذلك أيضاً خاتم النبيين ﷺ ج ١ ص ٤٢٢ وما بعدها للشيخ محمد أبو زهرة .

أحداث تتوالى عقب ذلك :

بعد أن خرج النبي ﷺ من الشعب عقب الحجوم على تلك الصحيفة بستة أشهر تقريبا مرض أبو طالب مرضا شديداً ولم يلبث أن وافته منيته ومات قبل فى رجب وقيل فى رمضان فى السنة العاشرة من البعثة ولم تلبث أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها أن لقيت ربها هى الأخرى بعد وفاة أبى طالب بقليل قيل إنها ماتت بعده بثلاثة أيام فى شهر رمضان .

ولا يخفى علينا ماقام به أبو طالب تجاه ابن أخيه ﷺ من حفظ ودفاع حتى مات كذلك لايغيب عن الأذهان موقف تلك الزوج الباهرة التى ضربت أعلى الأمثلة فى حسن العشرة ورجاحة العقل وعظيم التقدير والاهتمام لزوج هى التى أختارته لنفسها زوجاً لما عرفته عنه فى كافة النواحى والشئون والأخلاق والمعاملات .

وقد جاء فى الحديث الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم - وذكر عنده عمه - فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه) صحيح البخارى حـ١ صـ ٥٤٨ باب قصة أبى طالب

أما عن أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها فقد ورد فى فضلها الكثير نذكر منه على سبيل المثال مايأتى :

قال رسول الله ﷺ عن أم المؤمنين خديجة : آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وأشركتنى فى مالها حين حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها وحرم ولد غيرها) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقد جاء في صحيح البخاري باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ج١ ص ٥٣٩ . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال يارسول الله هذه خديجة ، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها وبشرها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

موقف المشركين من رسول الله بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها :

بعد أن مات أبو طالب عم النبي توالت الأحداث الجسام ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديداً لذلك حتى أطلق على العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة رضي الله تعالى عنها عام الحزن .

ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو طالب المدافع الأول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانت خديجة الزوجة البارة الحنون عليه صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول ابن كثير (وعندي أن غالب ماروى مما تقدم من طرحهم الجزور بين كتفيه وهو يصلي كما رواه ابن مسعود ،

وكذلك ماأخبر به عبد الله بن عمرو ابن العاصي من خنقهم له ﷺ خنقا شديداً ، وكذلك عزم أبي جهل . . لعنه الله على أن يطأ عنقه وهو يصلي فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك .

ذلك كله كان بعد وفاة أبي طالب والله أعلم .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن أذى المشركين لهصلى الله عليه وسلم أخذ مرحلتين :

المرحلة الأولى :

ما كانت قبل وفاة أبي طالب . وكان فيها أذى المشركين لرسول الله ﷺ بالاستهزاء والسخرية والسب وما كانوا ينالون من رسول الله ﷺ بأيديهم بالإضافة لما كان يصيب الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ من تعذيب وغيره مما أدى إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين وكان فيهم من كبار المسلمين كجعفر بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان وغيرهما .

المرحلة الثانية :

وهي بعد وفاة أبي طالب تحول إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ من السكلة باللسان إلى الاعتداء بالفعل والقول مما دفع النبي ﷺ أن يطلب الجوار ليدخل مكة المكرمة ، فأجاره مطعم بن عدي . ولكن النبي ﷺ وإن كان قد فقد حماية أبي طالب له فإن الله تعالى قد عوضه بحمايته تعالى له .

فقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال : مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي ، فقال ألم أنهك أن تصلي أيا محمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني ، فانتهره النبي ﷺ فنزل في ذلك قول الله تعالى [فليدع ناديه سندع الزبانية] والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب(١) .

وقد وردت روايات كثيرة تثبت ما كان يجعله الله تعالى من إمهابة لدى كل من يجابهون النبي بأذى . روى محمد بن اسحق بسنده عن عبد الله ابن أبي سفيان الثقفي قال : قدم رجل من أراش بإبل له إلى مكة المكرمة

(١) راجع خاتم النبيين ﷺ جـ ١ صـ ٤٤٧ ، ٤٤٨ للشيخ محمد أبو زهرة

فاتباعها أبو جهل بن هشام فضربه بأثمانها فأقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد فقال : يامعشر قريش هل من رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام فإني غريب وابن سبيل وقد غلبني على حقي : فقال له أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون إلى النبي ﷺ يستهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة إذهب إليه وهو يساعدك في ذلك .

فأقبل الرجل إلى رسول الله على حسن نيـــة منه وطلب من النبي مساعدته فذهب النبي معه حتى وصل باب أبي جهل وضرب الباب فقال من هـذا ؟ قال محمد ، فأخرج ، فخرج إليه ، وما في وجهه قطرة دم فقال له ﷺ اعط هذا الرجل حقه ، فقال . لا تبرح حتى تأخذه ، فدخل ، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فقال للرجل : ارحل لشأنك ، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس : فقال جزاه الله خيراً ، قد أخذت الذي لي الخ .

والتقى للمشركين بالرجل الذي أرسلوه إلى النبي وسألوه حتى رأى فقال لهم رأيت عجبا ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه فقال اعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقيبه فدخل فأخرج إليه حقه .

لم يلبث أن جاء أبو جهل إلى المجلس فقالوا : ويحك والله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال : والله ما هو أن ضرب على بابي وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، فخرجت إليه ، وإن فوق رأس لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لئن أبيت لآكلني .

والقصة تدل أول ما تدل على عنايه الله بنبيه ﷺ وتأييده له وإلقاء الرعب في قلوب أعدائه ﷺ .

خروج النبي ﷺ إلى الطائف :

تذكر بعض الروايات أن النبي ﷺ خرج في شوال من السنة العاشرة للبعثة الموافق أواخر مايو أو أوائل يونيه سنة ٦١٩ م إلى الطائف، ماشيا على قدميه في الذهاب والعودة ﷺ ؛ وليس معه من الخلق سوى زيد بن حارثه وكان ﷺ يدعو كل من مر عليهم من القبائل ، وقد أمر كل من دعاهم من القبائل على عدم استجابة لما دعوا إليه . وبعد أن وصل ﷺ الطائف قصد ثلاثة إخـــوة رؤساء ثقيف ، وهم عبد ياليل ياليل ، ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي ، فجلس إليهم النبي ﷺ ودعاهم إلى الإسلام وإلى نصرته ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها) إن كان الله قد أرسلك : وقال ثاني الرجال : أما وجد الله أحداً غيرك ، أما الأجير . فقال : والله لا أكلمك أبداً إن كنت رسولا لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك . فانصرف النبي ﷺ قائلا لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني (٢) .

ولم ييأس ﷺ من صد هؤلاء له ولكنه تنقل في الطائف والتقى بالكثيرين من سادتها و كبرائها وقد مكث عشرة أيام غير أن كل من التقى بهم من أهلها أعرضوا عنه وصدوه قائلين له إخـــرج من بلادنا وبالبيت الأمر وقف عند هذا الحد ولكنهم حرضوا عليه السفهاء منهم عندما أراد الخروج ووقفوا له في الطريق يرمونه بالحجارة ويقذفونه

المرجع السابق حـ ١ ص ٥٤ . وما بعدها .

(٢) راجع الرحيق المختوم ص ١٤٢ الكتاب الإسلامي صفي الرحمن المبارك فوري .

بكلمات السفه حتى سال الدم من جسده الشريف عليه الصلاة والسلام وفى ذلك الأثناء يحاول زيد بن حارثة أن يتلقى الأحجار محاولا أن يفدى الرسول ﷺ . ولم يزل هؤلاء السفهاء يتبعون الرسول ويلقونه بالأحجار حتى ألجأوه إلى بستان لعقبة وشيبه ابنى ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف فجلس بجواره ﷺ وقد أرسل لعقبة وأخوه يقطف من عنب هذا البستان مع غلام لها نصرانى يسمى عداس . فلما أعطى العداس قطع العنب لرسول الله ﷺ مد النبى يده على العنب قائلا : باسم الله ثم بدأ يأكل فقال له عداس : إن هذا الكلام لم أسمعه من أهل تلك البلاد ولم يقله أحد منهم فقال له النبى من أى البلاد أنت وما دينك ؟ قال : نصرانى من أهل نينوى . فقال الرسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . قال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ ذاك أخى . كان نبيا وأنا نبى . فأكب عداس على رأس النبى ويديه ورجليه يقبلها . وكان نصيب النبى فى تلك الرحلة الشاقة والقاسية إن فى ذلك الغلام الذى تعجب سيداه من إيمانه قائلا أحدهما للآخر لقد أفسد علينا غلامنا .

هذا وقد عاد ﷺ من تلك الرحلة حزينا متألما يتجلى ذلك فى هذا الدعاء الذى ناجى ربه وهو تحت حائط ابنى ربيعه حيث قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وقد روى البخارى أن النبى ﷺ أخبر أنه أصيب يوم الطائف بأشد ما أصيب به ، كما رواه عروة بن الزبير عن عائشه أم المؤمنين رضى الله عنها

أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم احد؟ قال لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم افق إلا وانا بقرن الثعالب — وهو يسمى بقرن المنازل — فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك .

وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد ذلك ، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين — والأخشبان هما جبلا مكة المسميان أبو قبيس ، وقعيقعان قال ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا] (١) .

بعد هذا اللقاء الذي تم بينه ﷺ وبين ملك الوحي في طريق العودة من الطائف إلى مكة المكرمة وأمام عرض ملك الجبال ما عرض عليه ﷺ من انتقام فوري وصارم قام ﷺ وكله ثقة ويقين في تأييد الله له وفي وعده نجله أثناء العودة أقام ﷺ أياماً فيها صرف الله لنبيه نفراً من الجن يستمعون القرآن الكريم وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في موضعين من القرآن الكريم : الأول في سورة الأحقاف من قوله تعالى [وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن] الخ .

الموضع الثاني: في سورة الجن في قوله تعالى من أول السورة [قل فاشفت أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا] الخ الآيات

---

(١) راجع صحيح البخاري كتاب بدء الخلق حـ ١ صـ ٤٥٨ ، صحيح مسلم باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين حـ ٢ صـ ١٠٩

وفى ذلك نصر وتأييد من الله تعالى لنبيه أيضا كالنصر الأول فى عرض ملك الجبال أن يطبق الأخشبين على المشركين ، وصدق الله العظيم . حيث يقول فى سورة الأحقاف التى تخبر عن صرف الجن إلى النبى الاستماع بالقرآن الكريم (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دون أولياء أولئك فى ضلال مبين) الآية ٣٢ وقوله فى سورة الجن (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ،

وقد واصل النبى السير من الطائف إلى قلة أمام نصر بن غيبين من الله تعالى ، نصر التأييد للنبى والتهديد للقوم بالعقاب الجماعى ، ونصر الإمداد فى مجال الدعوة وصرف الجن إليها يستمعون كتابها ويؤمنون بها ويعترفون بقوة الله وبطشه للمخالفين دون أن يعجزه شىء فى ذلك .

هذا وأمام ذلك الموقف الصعب فى ظاهره يشفق زيد بن حارثة على رسول الله ويقول يا رسول الله كيف السبيل إلى مكة وقد أخرجك منها الأعداء ببطشهم وجبروتهم وشدة إيذائهم لك ولأصحابك فيرد عليه النبى ﷺ قائلا : يا زيد إن الله تعالى جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

ومما ينبغى أن نتأمل صعوبة الموقف وما لقيه ﷺ فيه فى حين أن كان من الممكن أن يتحقق له أعظم بطش بسبب الأعداد من قومه : يقول ابن هشام حول ذلك الموقف : أرسل النبى الأخنس بن شريق ليجيره فيرد عليه بقوله : أنا حليف والحليف لا يجير ، فيرسل إلى سهيل بن عمرو ، فيرد بقوله إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب فيبعث إلى المطعم بن عدى .

فيقول : نعم ثم يتسلح مع بنيه ويخبر القوم بأن أجار محمداً ومن تعرض له بسوء رددت عليه ، وبتلك الصورة يدخل النبى ﷺ مكة متوجها

إلى الحرم حتى وصل إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ﷺ والمطعم محيط به حتى دخل بيته (١).

مرقف النبي بعد العودة من الطائف :

هنا يتجلى حب النبي ﷺ لربه وإخلاصه للدعوة وأمانته فى تبليغها رغم صعوبة الموقف وضآلة الأعداء فقد آثر ﷺ أن تبلغ الإسلام للقبائل والأفراد ، يروى الشيخ عبدالله النجدى فى كتابه : مختصر سيرة الرسول ﷺ فى ذى القعدة من السنة العاشرة من البعثة عاد رسول الله ﷺ إلى مكة ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من فج عميق لقضاء شعائرهم ومناسكهم وليشهدوا منافع لهم فانتهز ذلك ﷺ وأتى الوافدين قبيلة قبيلة .

قال الزهرى وكان ممن يسمى لنا من القبائل التى أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض عليهم : بنو عامر بن صعصعة، وكارب بن خصفة، وفزارة، وغسان ومرة ، وحنيفة وسليم ، وعبس ، وبنو نصر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث من كعب وغيرهم فلم يستجب منهم أحد وقد استعرض ذلك العرض فترة طويلة بدأت من السنة الرابعة من البعثة حتى السنة الثالثة عشرة قبيل الهجرة بقليل كما ذكر ذلك ابن اسحق فى سيرته (٢).

---

(١) راجع زاد المعاد حـ٣ صـ ٤٦ وما بعدها وفى ابن هشام حـ ١ صـ ٤١٩ — ٤٢٢ .

(٢) حـ ١ صـ ٤٢٤ وما بعدها ، تاريخ الإسلام للنجيب أبادى حـ ١ صـ ١٢٥ — ١٢٩ .

بوادر النصر فى اقتحام أسوار مكة إلى يثرب :

فى السنة الحادية عشرة من البعثة وفى موسم الحج عند العرب خرج ﷺ ذات ليلة ومعه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعندما وصل إلى منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام وكان بين أبى بكر وبين رجل من ذهل بعض الأسئلة والردود الطريفة التى أنبأت عن خير وأمل يرتجى من هؤلاء القوم .

ثم بعد ذلك مر ﷺ بعقبة منى وعندما سمع من يتكلمون ، فتوجه إليهم وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج ذكر عنهم ابن القيم والشيخ النجدى وابن هشام أن هؤلاء النفر هم .

١ — أسعد بن زرارة من بنى النجار ، وعوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار أيضا ورافع بن مالك بن العجلان من بنى زريق ، وعقبة بن عامر بن جديدة من بنى سلمة ، وعقبة بن عامر بن نابى من بنى حرام بن كعب وسادس هؤلاء النفر جابر بن عبدالله بن رئاب من بنى عبيد ابن غنم .

وعندما سمع هؤلاء النفر من رسول الله ﷺ ماسمعوا عن الإسلام فذكروا ما كان يتوعدهم به اليهود من أنه سيبعث نبى آخر الزمان وسيقاتل به اليهود والعرب مثل عاد وإرم .

وفى ذلك الموقف شرح النبى لهؤلاء النفر الستة من شباب يثرب حقيقة الإسلام ودعاهم إلى الإيمان بالله عز وجل وتلا عليهم القرآن الكريم ، فقال بعضهم لبعض ، تعلمون والله ياقوم إنه النبى الذى توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا ، وقد عاش هؤلاء الشباب فى جو القتال الذى كان يستعر لهيبه بين الوقت والآخر بيثرب بين

الأوس والخزرج فقالوا إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ونعرض عليهم الذي أجبناك عليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ؛ وقد رجعوا وعرضوا الإسلام على قومهم حتى لم يبق دار من دورهم إلا وفيها ذكر الإسلام وفيه ﷺ(١) .

حديث الإسراء والمعراج :

عرفنا فيما سبق أنه ﷺ ذهب إلى الطائف وعاد منها بصورة قاسية فيها وحشية وهدم لكل مبادىء الخلق والضيافة وفي هذا الجو ساق الله نفراً من الجن سمعوا منه ﷺ القرآن الكريم .

ثم نرى بعد ذلك بتلك الرحلة الكريمة المباركة التي كان جزء منها يتعلق بالسرى من المسجد الحرام بمكة أما جزؤها الآخر فإنه صعود إلى السموات من بيت المقدس إلى نهاية ما شاء الله لنبيه أن يرقى إليه ليرى من آيات ربه الكبرى ما يرى .

ولا يعنينا هنا أن نحدد في أي سنة وقع الإسراء وفي أي شهر ويوم من الأيام تحقق ولكن المهم أن ندرك الآيات الباهرات وخوارق القادات التي صحبت تلك الرحلة إكراماً للنبي محمد ﷺ وتأييداً له وللإسلام الذي حمل أمانة تبليغه للناس .

يقول ابن القيم رضي الله عنه : أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس ، راكباً على البراق صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماماً وربط

---

(١) ابن هشام حـ ١ ص ٤٢٨ — ٤٣٠ .

البراق بحلقة باب المسجد ، ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا .

ويواصل ابن القيم كلامه فى عروج النبى ﷺ من السماء الأولى إلى الثانية وعند كل سماء يستفتح جبريل ثم يفتح له وفى كل سماء يلتقى رسول الله بمن فى تلك السماء من الأنبياء والرسل حتى وصل إلى سدرة المنتهى ثم رفع له ﷺ البيت المعمور .

ثم يواصل ابن القيم حديثه بأنه عرج بالنبى ﷺ إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة فرجع حتى مر على موسى فقال النبى بم أمرك؟ قال بخمسين صلاة قال له موسى: إن أمتك لا تطيق ذلك ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيره فى ذلك فأشار أن نعم ، إن شئت .

وبعد المناجاة منى النبى وسؤاله التخفيف لأمته فى الصلاة وخففت من الخمسين إلى خمس صلاة فى اليوم والليلة سمع النبى النداء . قد أمضيت فريضتى وخففت على عبادى(١) .

وبعد ذلك تكلم ابن القيم عن قول الله تعالى فى سورة النجم ، ثم دنا فتدلى ، قائلا : الدنو فى تلك الآية غير الدنو فى قصة الإسراء فإن الدنو فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود والسياق يدل عليه .

وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء والمعراج فذلك صريح فى أنه دنو

---

(١) زاد المعاد حـ ٢ صـ ٤٧، ٤٨

الرب تبارك وتعالى وتدانيه ولا تعرض فى سورة نجم لذلك بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى .

وهذا هو جبريل رآه النبى ﷺ على صورته مرتين : مرة فى الأرض ومرة عند سدرة المنتهى والله أعلم(١) .

موقف المشركين من نبأ الإسراء والمعراج :

لا مجال الآن ، أن يقع تساؤل بين الناس ؟ هل الإسراء والمعراج كان بالجسد أم كان بالروح أم كان بالجسد والروح معا لا مجال لمثل ذلك التساؤل بعد هذا التقدم العلمى الذى وصل الإنسان الضعيف المخلوق لما وصل إليه عن طريق العلم .

والصحيح الذى لامرية فيه أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسد معاً كما يدل على ذلك نص الآيات والأحاديث التى وردت فى هذا الشأن .

ونحن إن عدنا إلى الوراء قليلا لنقف على أثر هـــذا الحديث وتلك المعجزة فى نفوس المشركين نرى أن منهم من فتن بذلك عند سماعه .

وقد روى فى ذلك ابن كثير عن قتادة قوله: انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة فأصبح يخبر قريشا بذلك فذكر أنه كذبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد إسلامها وبادر الصديق إلى التصديق ، وروى أنه عند مرور النبى ﷺ على عير لقريش قد بعير لهم نافراً فأرشدهم النبى ﷺ وقد أخبر رجال القافلة أهل مكة بذلك بعد عودتهم .

وقد سأل القوم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن غيرهم كما طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس وقد أخبرهم — صلى الله عليه وسلم

(١) المرجع السابق ص ٤٧ ، ٤٨ ، وصحيح البخارى حـ ١ ص ٥٠ ، ٤٥٥ — ٤٧٠ وصحيح مسلم حـ ١ ص ٩١ — ٩٦

عما طلبوا وتأكد القوم من ذلك فصدق رسول الله ﷺ من سألوا عما أخبر عنه ﷺ(١) .

مغزى الإسراء إلى بيت المقدس :

عندما تتأمل أول سورة الإسراء نرى أن الله تعالى أخبر عن الإسراء فى الآية الأولى فقط من السورة ثم أخبر بعد ذلك عن فظائع اليهود وما ارتكبوه من جرم فى حق الإنسانية جمعاء ثم أعقب ذلك بالإخبار عن القرآن بأنه يهدى للتى هى أقوم والمتأمل لذلك جيداً يدرك أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الناس لما ارتكبوه من جرائم وأن تلك القيادة ستصبح فى أمة الإسلام الخاتمة لكل الأمم على يد خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ .

ولسائل أن يقول : كيف تتسق تلك القيادة لمحمد رسول الله ﷺ ، وهو لم يزل يطوف فى شعاب مكة وجبالها مطروداً يتابعه الأعداء بالأذى فى كل مكان . والجواب أن هذا يدل على أن مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية كاد أن تنتهى ويدل عليها الستار وستبدأ مرحلة أخرى تختلف عما سبقها ولهذا تذكر آيات الوعيد والتهديد بالنسبة للمشركين فى نفس سورة الإسراء فى قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا(٢) ، وقوله « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا »(٣) .

---

(١) راجع الروض الأنف جـ ١ ص ٢٤٤ ، خاتم النبيين جـ ١ ص ٤٦٧ وما بعدها للشيخ محمد أبو زهرة .

(٢) سورة الإسراء / ١٧

(٣) صحيح البخارى جـ ١ ص ٧ باب حلاوة الإيمان ، باب وفود الأنصارى ص ٥٥٠ . ٥٥١

بشائر النصر بعد الإسراء والمعراج :

بعد حادثة الإسراء والمعراج وما كان لها من أثر فى نفوس المؤمنين فى زيادة الإيمان وقوة اليقين وما كان لها من آثار فى نفوس المكذبين من شدة العناد والإصرار على التكذيب ترى بوادر النصر تتحقق وعلى رأس ذلك ، ما وقع بين النبى ﷺ وبين المؤمنين من أهل يثرب الذين سبق أن عرض النبى عليهم الإسلام وعادوا إلى أهلهم وأخبروهم بما رأوا منه ﷺ وكان من نتيجة ذلك ما حدث فى بيعتى العقبة الأولى والثانية يروى البخارى فى صحيحه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ... الخ الحديث (١) .

وقد أعقب ذلك اللقاء فى بيعة العقبة الأولى اللقاء المبارك فى بيعة العقبة الثانية فى السنة الثالثة عشر من البعثة حيث حضر لأداء المناسك بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب،جاء واضمن وفد المشركين إلى مكة لأداء شعائرهم فى موسم الحج يقول كعب بن مالك أحد الرجال الذين بايعوا النبى ﷺ بيعة العقبة الثانية .

يقول : خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من وسط أيام التشريق و كانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها ومنا عبدالله بن عمرو بن حرام ، من ساداتنا وشريف من أشرفنا أخذنا معنا و كنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه

---

(١) صحيح البخارى حـ ١ صـ ٧ باب حلاوة الإيمان،باب وفود الأنصار صـ ٥٥٠ ، ٥٥١ .

أن تكون حطبا للنار غداً ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا) الخ .

وقد بايع النبي أهل المدينة على الإيمان والسمع والطاعة والبذل والتضحية من أهل الإسلام وقد استجابوا جميعاً بعد أن يأكد لهم خطورة تلك البيعة وما توجبه فى أعناقهم من بذل وتضحية فى سبيل الله تعالى ومن أجل نصره فيه ﷺ (١)

نتائج الفلاح تكاثر وبواد الهجرة النبوية تلمع :

نجحت بيعة العقبة نجاحاً لا يوجد له مثيل فى عالم البشر حيث تم اللقاء بين النبي الرحمة وبين أهل يثرب الذين أنهكت الحروب قواهم وأكلت فيهم الأخضر واليابس وحطمت ما بينهم من أواصر وصلات .

ويعد هذا كسباً كثيراً للدعوة الإسلامية إذ أن النبي استمر فى مكة ثلاثة عشر عاما يواصل الدعوة إلى الله ويلتقي بالوفود القادمة إلى بيت الله الحرام ويخرج هو إلى الطائف وأمام كل ذلك توضع العقبات الصرف الناس عن الإسلام وشاء الله تعالى أن تكون بوادر النصر إلى يثرب المدينة المنورة وأن يكون أول جند يحملون دعوة الإسلام مسافة للمسلمين الأولين بمكة هم أهل يثرب الذين وجدوا فى الإسلام ما وجدوا من خير وهداية ورحمة وسلام وأمن وقوة .

هذا وإن كان الموقف تحقق فيه مجال رحب للإسلام وانطلاقه فياضه

---

(١) راجع ذلك ابن هشام جـ ١ صـ ٤٤٠ — ٤٤٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى صـ ١٥٥ ، صحيح مسلم جـ ٢ صـ ١٣١ ، زاد المعاد جـ ٢ صـ ٥١

أنحاء الدنيا كلها فقد تحمل المسلمون من المهاجرين الكثير من المتاعب التي تقدم الدليل الواقعي على ما بذله هؤلاء من أجل نصره دين الله تعالى .

يروى لنا ابن اسحق فى سيرته نماذج لما حدث لهؤلاء السابقين إلى الإسلام منها ما يروى عن أم سلمة رضي الله عنها : كان من أول المهاجرين أبو سلمة ، هاجر قبل العقبة الكبرى، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير فى البلاد؟ فأخذوها منه وغضب آل أبى سلمة له فقالوا لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم حتى خلعوا ذراعه ، وذهبوا به وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة وبقيت أم سلمة وحدها فى مكة أخذوا منها ولدها ومنعوها من الخروج مع زوجها فظلت تخرج إلى الأبطح تبكى حتى تمسى ومضى على ذلك نحو أمن سنة حتى رق لها بعض الأفراد من القوم وقالوا فيما بينهم دعوها تخرج فقالوا لها الحقى بزوجك ، فاسترجعت ولدها من عصبته وخرجت متوجهة إلى المدينة — والرحلة من مكة إلى المدينة تربو على الخمسمائة من الكيلومترات — وليس معها أحد إلا الله ولا يخفى على المرء ما فى تلك الرحلة فى ذلك الزمان وما عليه الطريق من خطورة ومتاعب يعجز الأبطال من الرجال عن مواصلة السير فيها واستمرت حتى لحقت بزوجها المؤمن لتواصل معه العمل من أجل الحق الذى آمنت به لله رب العالمين(١) .

ولا يخفى علينا ما تحمله صهيب الرومى وما بذله من عطاء ليلحق برسول الله ﷺ حينما حبسه القوم ومنعوه من الخروج حتى يعطيهم كل ما يملك من مال وقد بذل ماله كله ليلحق برسول الله ﷺ فى دار الهجرة وعندما

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٤٦٨ — ٤٧٠

قص على النبي ما حدث بشره النبي برج التجارة وثمرة العمل فقال له ﷺ : ربح البيل(١) .

وقد وردت النصوص الكثيرة في شأن الهجرة النبوية منها قوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينة عليه وأيده بجنود لم تروها)(٢) .

كما ورد في شأنها ما رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت : قال رسول الله ﷺ للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين — وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر — وهو الخبط — أربعة أشهر(٣) .

هذا ولا يخفى علينا ما كان من رسول الله ﷺ في أحكام خطة الهجرة وما كان من المشركين من محاولات للقضاء على رسول الله ﷺ قبل الهجرة وما كان من الله تعالى إكراماً لنبيه ونصرة له كل ذلك أفاضت فيه كتب الحديث والسير فارجع إليه إن شئت .

كما أننا ندرك أيضاً ما كان منه ﷺ عقب وصوله إلى المدينة وقد رأى ﷺ الناس بالمدينة ثلاث طوائف .

---

(١) المرجع السابق حـ ١ صـ ٤٧٧

(٢) سورة التوبة ٤٠

(٣) صحيح البخاري حـ ١ صـ ٥٥٣ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه .

١ — طائفة المؤمنين من الأنصار .

٢ — طائفة المشركين الذين لم يؤمنوا بعد .

٣ — طائفة اليهود الذين هم مصدر — القلاقل والعداوات للأوس والخزرج لحين من الدهر طويل .

ولكن الخطة المحكمة التي وضعها ﷺ أول عهده بالمدينة وتحديد العلاقة بين المسلم وربه ثم تحديد العلاقة بين المسلمين فيما بينهم وأخيراً علاقة المسلمين بغير المسلمين وتهيئة المجال لكل جانب من تلك الجوانب أدى كل ذلك إلى انتصار الإسلام وجمع الله الناس لنبيه ودخلوا في دين الله أفواجاً وتحقق النصر والتأييد وشهد الله للنبي بذلك في قوله (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) .

تلك لمحات سريعة حول معزة الإسراء والمعراج بين الأحداث والنتائج أقدمها في تلك الصفحات لعل الله تعالى أن ينفع بها في مجال العلم ، وأن يتذكر بها الدعاة ماذا عليهم نحو هذا الدين حتى يعود الناس إلى الله مؤمنين صادقين كما حقق ذلك أصحاب النبي الأمين ﷺ ورضي الله عنه أجمعين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين آمين ، والله أعلى وأعلم .

د/عبد الله عبد الحي محمد
أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين بالقاهرة

---

(١) سورة المائدة ٣